عمر بن عبد العزيز

الخليفة الصوفى

للاستاذ محمود شلبى

— ٤ —

ودخلت فاطمة بنت عبد الملك ليلا على عمر بن عبد العزيز تتفقده كما تتفقد الزوجة زوجها .

فوجدته واضعا خده على يده ، جالسا فى مصلاه ، يبكى بكاء مرا .

فقالت فاطمة : أى عمر ... ما ذا يبكيك ؟

فقال عمر : قد وليت من أمر هذه الامة ما وليت ، فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والاسير ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم فى أقطار الارض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت أن لا يثبت لى حجة عند خصومته ، فرحمت نفسى فبكيت !

فانظر الى أى مدى كان احساس عمر بن عبد العزيز بمسئولية الحكم .

كان يوقن يقينا لا شك فيه أن الله سائله يوم القيامة عما استرعاه ضيع أم حفظ .

كان يحس احساسا عميقا بمعنى قوله سبحانه « **وقفوهم انهم مسئولون ، مالكم لا تناصرون** »

فينفطر قلبه ، وتنهمر عينه ، اشفاقا على نفسه ، ورحمة بها .

الا أن فاطمة بنه عبد الملك لم تكن لتنهزم بمثل تلك البساطة أمام زوجها عمر بن عبد العزيز .

انها امرأة وللنساء كيدهن العظيم ، ومكرهن العميق .

ونادت فاطمة جارية لها تفوقها حسنا وجمالا وقالت لها : اسمعى .. تعلمين أن عمر بن عبد العزيز كان قد طلب منى أن أنزل عنك ، أما بيعا أو هبة ؟

قالت الجارية : نعم سيدتى .

فزادتها فاطمة ايضاحا وقالت : كان ذلك قبل أن يلى أمر الخلافة . أخبرنى اذ ذاك أنه معجب بك أيما اعجاب ، وخيرنى بين أن أنزل عنك له اما بالبيع واما بالهبة ، فرفضت رفضا قاطعا .

فأعجبت الجارية نفسها ، وتولاها احساس بخطرها ، وقالت : ثم ماذا سيدتى ؟

قالت فاطمة : ان لك لشأنا الآن يا ميمونة ، وسوف أجعلك سببا أن يدع عمر ما هو عليه من اعتزال النساء والتخلى عن الدنيا . سأزينك أبهى زينة ، وأخلع عليك أجمل ما أملك من الملابس . ثم أدخل أنا أجالسه وأخبره أننى قد وهبتك له كما طلب منى من قبل ،

واطمأنت فاطمة الى مكرها ، وكان مكرا فى تفكيرها عظيما .

ودخلت على عمر ، وجعلت تجالسه وتداعبه ، ثم قالت : أتذكر ميمونة ؟

قال عمر : أذكرها صالحة طيبة .

قالت : لعلها حسناء تعجبك .

قال : كنت قد طلبت اليك أن تنزلى عنها اما بيعا أو هبة .

قالت : الآن قد فعلت .. قد وهبتها لك .

ثم خرجت فاطمة تسعى حثيثا ، ودخلت ميمونة اليه فى أجمل ما تكون كامرأة .

فسألها عمر : هل لك حاجة ؟

ميمونة : مولاى .. عمر .. بلغنى أنك تكن لى حبا عظيما يا مولاى .

فقال عمر : قد جاءنى أمر شغلنى عنكن .. ولكن من أين أنت يا ميمونة، وكيف جئت الى هذه البلاد ؟

قالت الجارية ، وقد انكسر ما كان فيها من تفتح واقبال : ارتكب أبى ببلاد المغرب جناية ، فصادره موسى بن نصير ، وأخذونى فى جناية أبى ، وبعثنى الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فوهبنى الوليد الى أخته فاطمة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين .

فانتفض عمر وقال : انا لله وانا اليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، أنت من الآن حرة لوجه الله ، ارجعى الى بلدك مكرمة معززة .

فبكت الجارية ، وتأثرت من كريم موقفه ، وتملكها ما يتملك السجين اذا فك اسماره فجأة فقالت : لقد ازددت لك حبا يا أمير المؤمنين .

أما فاطمة فساءها ما آل اليه كيدها ، وانقلبت لا تلوى على شيء !

ذلك هو عمر بن عبد العزيز ، الرجل الذى يتفجر شبابا ورجولة ، الذى لم يكتمل له أربعون عاما ، ثم هو يعرض عن امرأة حسناء لعوب ، كان يتمناها قبل الخلافة ، لان احساس المسئولية أمام الله قد استيقظ فيه فى أعلى صور اليقظة ، فلا مجال للشهوات بعد ذلك .

ولو أن رجلا غير عمر — أيا كان ايمانه — جاءته احدى نسائه اللائى أحلهن الله له ، فى مثل ما جاءت به تلك الجارية الى عمر ، لاحتواها بين ذراعيه ، وأخذها اليه وهو يقول : شيء أحله الله لى فكيف أحرمه على نفسى ؟ .. أو يقول : **قل من حرم زينة الله** .

الا أن عمر لم يفعل ذلك ، ولو فعل ما نقص ذلك من تقواه شيئا .

وانما غلب عليه احساس أعلى وأسمى ، احساس المسئولية أمام رب العالمين .

فذهب يسألها : من أين أنت ، وكيف جئت ؟

وقد صدقت فراسة الرجل ، وتبين له أنها أخذت بغير حق فى جناية أبيها ، فتذكر قوله سبحانه « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » ، فصاح من أعماقه : كدنا والله نفتضح ونهلك .

نعم ، ماذا يفعل اذا أوقفه الله يوم القيامة وسأله : لماذا لم تنصف هذه المسكينة يا عمر ، وتردها الى أهلها ومنزلها ، وقد علمت أنها أخذت بغير حق ؟

وماذا هو قائل والله لا تخفى عليه خافية ؟

كل ذلك وأكثر من ذلك كان يدور فى رأس الرجل ، والجارية تنشر كيدها وتنشر حسنها من حوله .

احساس ربانى غلب فيه احساسا حيوانيا .

احساس انسانى أمات فيه احساسا أنانيا .

ذلك هو عمر بن عبد العزيز ، وتلك هى صوفيته .

وليت الامر وقف بك عند هذه المرتبة يا عمر ، اذا لسلكوك بما فعلت فى عداد عظماء التاريخ ، وأعلام العباقرة .

ولكن هناك حادثة أخرى ، تموج بالربانية ، وتفوح بالانسانية ، وددت لو أن كل انسان فى هذه الدنيا قرأها فوعاها .

كان عمر يجلس فى منزله ، فاذا بأصوات غاضبة ترتفع ، ثم يدخل رجال بصبى صغير يبكى ويحاول أن ينفلت منهم رعبا .

(يتبع)